

الفصل الرابع

التسلسل الزمني والترتيب اللاهوتي في الاناجيل

كتبت الاناجيل لتحمل الشهادة للمسيح وفيها إبريز وجهه التاريخي على ضوء القيامة . وهكذا رتب الانجيليون مواد كتبهم بحيث تبرز معنى حياة يسوع وتعليمه ولو ادى هذا العمل الى التضحية بالترتيب الزمني .

ومسواء اتبعوا التسلسل الزمني ام لا ، فان المادة الانجيلية وضعت ضمن حدود البشارة الرسولية ناقلة بعمق ان الاحداث تتحرك في اتجاه هدف واخذ غاية في الاهمية . ان القديس لوقا كتب الى العزيز ثيوفيلوس « قصة في الامور المتينة » ليعرف صحة الكلام الذي تعلمه (لو ١ : ٣ - ٤) . ويخبرنا بابياس ، الاب الرسولي الذي عاش في اوائل القرن الثاني ، ان مرقس « كتب . . . بدقة ولكن بدون تسلسل زمني » . ويضيف « انه سعى الى عدم حذف او تزييف شيء مما كان قد سمعه » .

لا رواية عن يسوع بدون لاهوت

بالرغم من الصعوبة في تعيين زمن حدوث بعض اعمال يسوع يبقى خاطئا الافتراض انه لا يوجد تسلسل زمني في الاناجيل .

واصعب من ذلك اسناد اقواله الى اوقات محددة بالضبط . غير ان الاحداث الهامة في حياة يسوع تأخذ مكانها الصحيح في التسلسل الزمني . فالمعمودية ، مثلا ، حصلت قبل التجربة ، والتجلي تلا اعتراف بطرس وسبق الرحلة الاخيرة الى اورشليم . ويمكن التأكد من هذا التسلسل الزمني بتسلسل اوضح يبدو في سرد احداث الآلام ، لان اسبوع الآلام يشكل وحدة متكاملة تقتضي السرد المتواصل . وهكذا يمكن القول انه يوجد بشكل عام تسلسل زمني للاحداث الواردة في الانجيل وأن سرد حياة يسوع لا يخلو من النظرة التاريخية .

ان مسألة التسلسل الزمني في البحث الانجيلي ليست من المسائل الثانوية . فالنقاد الذين يزعمون بان الانجيل من صنع الجماعة المسيحية الاولى يشكون بإمكانية الترتيب الزمني لحياة يسوع . وبالمقابل نرى ان الذين يعتبرون الانجيل مذكرات لشهود عيان يبدون اهتماما اكبر بالترتيب الزمني في الانجيل . ويجدون ان معرفة ترتيب الاحداث هو امر مهم للوصول الى فهم افضل لحياة يسوع وعمله الخلاصي . فيعتقد دود مثلا أن ترتيب مرقس لانجيله يتبع أساسا سياق الاحداث (١) .

ان الترتيب الزمني غالبا ما يحمل في طياته ترتيبا لاهوتيا . كذلك سرد قصة يسوع لا يكون بدون لاهوت . حتى الخبر التاريخي لا بد له من ان يحمل حقيقة لاهوتية . مثال ذلك قصة المعمودية يسوع التي حصلت قبل التجربة . كان يسوع اثناء المعمودية محاطا باناس من سلالة ابراهيم يهثون انفسهم لحيي ماسيا ومملكته . ولقد كشف معنى المعمودية الصوت السماوي : « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » (مر ١ : ١١) . هذا الاعلان الالهي الذي يجمع المزور الماسياني (٢ : ٧) الى التشديد الاول لخادم الرب المتألم (اشعيا ٤٢ : ١) يكشف لنا عن هوية يسوع . انه ماسيا ابن الله الذي كان على وشك تحقيق الدور المعطى للخادم الحامل الاوجاع في اشعيا ٥٣ : ٢ . لا يمكن فهم كل المعنى اللاهوتي لحادثة التجربة الا اذا ربطت بالمعمودية . والشيطان ، في التجربة ، طلب من يسوع ان يكون غير الماسيا الذي اعلن في المعمودية ، ذلك الماسيا الذي يختصر الطريق الى الفردوس بدون آلام . لكن يسوع تخطى

التجربة ورفض ان يسلك طريقا تبعده عن الآلام وتفصله عن الشعب الذي ، من أجل خلاصه ، ظهر في معموديته . وفي التجربة اثار يسوع الى ان دور ابن الله المتألم المعلن عنه في المعمودية سيكون دوره هو (٢) .

لكن الترتيب الزمني لا يمثل دائما المرتبة الاولى في الانجيل . فالأفضلية تعطى ، عادة ، للترتيب حسب المواضيع . فنرى الانجيليين يجمعون اقوالا نطق بها يسوع في مناسبات عدة وربما في فترات زمنية متفاوتة ويجعلونها في مجموعة واحدة . مثال ذلك الموعظة على الجبل والامثال والعجائب . فمن الواضح ان عجيبه الشفاء التي تلي الموعظة على الجبل والتي تفتتح مجموعة من العجائب في الاصحاحين الثامن والتاسع من انجيل متى لم تحدث آنذاك . والمشكلة ليست فينا اذا حدثت هذه الاعجوبة ام لا ولكن في التاكيد من المكان والزمان اللذين حصلت فيهما (٣) . لقد استخدم الانجيليون هذا النوع من الترتيب بحسب المواضيع بغية ايجاد اتصال اقوال يسوع وابعاله الى تلك الجماهير التي لم تكن تهتم لسباق الاحداث .

ولأن هاجس الانجيليين كان دائما ايضا معنى بعض الاحداث وربط كل شيء بالظهور الالهي في المسيح يسوع وفي شرح معانيه وليس معرفة زمان ومكان الحدث ، فقد عمد الانجيليون في بعض الاحيان الى التوضيح بالتسلسل الزمني . لقد كتب اوريجنس انه لا يجب ادانة بعض الانجيليين حتى ولو عدلوا بعض الاشياء . « كانوا يتكلمون عن شيء حصل في مكان ما وكأنه حصل في مكان آخر او عن امر حدث في زمن ما وكما لو انه حدث في وقت آخر او يدخلون بعض التفسيرات في الكلمات التي نطق بها فعلا . كان يقصدهم قول الحقيقة بوجهيها المادي والروحي ، وفي حال استحالة ذلك كانوا يفضلون قول الوجه الروحي . والحق يقال بان الحقيقة الروحية كانت تنقل احيانا بما يسمى الكذب المادي » (٤) .

ان حادثة طرد الباعة من الهيكل (متى ٢١ : ١٢ - ١٣ ، مر ١١ : ١٥ - ١٩ ، لو ١٩ : ٤٥ - ٤٨ ، يو ٢ : ١٣ : ٢٥) وضعت حسب الترتيب الزمني في الانجيل السينابتيكية وحسب الترتيب اللاهوتي في الانجيل الرابع . فيوحنا وضعها في بداية انجيله بينما وضعها الانجيل السينابتيكية في اواخر حياة يسوع

الإرضية . الطريقتان لهما مغزى لاهوتي ولكن انجيل يوحنا يعطي المعنى الأكثر عمقا . تورد الأناجيل الثلاثة الأولى هذه الحادثة قبل الصلب بقليل . عندما أتم يسوع تعليمه في الهيكل بعد طرد الباعة أخذ الكهنة والكتبة يتشاورون كيف يقتلونه (مر ١١ : ١٨ ، لو ١٩ : ٤٧) . قد يكون الانجيليون الثلاثة مصيبن في ترتيبهم لزمني هذا ولكن ، في هذه الحال ، كيف يمكننا أن نفسر وضئع يوحنا ، الشاهد العيان ، هذه الحادثة في بداية انجيله ؟ لقد كتب يوحنا انجيله ، كسائر الانجيليين ، بعد القيامة وهكذا نظر الى حياة يسوع في ضوء القيامة . ولعله اختار حادثة طرد الباعة عملا رمزيا يشير الى ان حياة يسوع هي في خطر منذ البداية وان ظل الصليب كان مخيما على كل عمله الخلاصي . ومعنى آخر يبرز مع هذا الترتيب ان في هذا العمل كشف يسوع عن هويته وهذا ما قاده الى الموت . انه اتخذ لنفسه حقا الهيا واقى الى بيته قرب الهيكل ولكن خلاصته وفضته (٥) .

موعد العشاء الأخير

ان معظم المحاولات لتأريخ بعض الأحداث الذونة في الانجيل ليست ذات قيمة كبيرة لانها محاولات فردية تجري بطريقة عشوائية وعلى أساس غير واضحة . بالرغم من ان معنى أحداث حياة يسوع لا يعتمد تحديد موعد حدوثها ، فان معنى العشاء الأخير يتأثر كثيرا بزمان حدوثه ومكانه . خصوصا وان الأناجيل الأربعة ذكرت الحادثة الا ان الأناجيل السينائية تختلف عن انجيل يوحنا بتحديد يوم الفصح .

يتفق الانجيليون الأربعة على ان العشاء الأخير أقيم مساء الخميس وان الصلب تم يوم الجمعة ، إلا انهم لا يتفقون فيما إذا كان العشاء الأخير عشاء فصحيا أم لا . وفقا للأناجيل السينائية ، كان العشاء الأخير طعام الفصح وأقيم في يوم الفصح ، الذي يبدأ في التقويم اليهودي من الغروب وينتهي في غروب اليوم التالي . لذلك كان يؤكل العشاء الفصحي بعد الغروب ، مع العلم ان ذبح الخراف في الهيكل كان يحصل قبل يوم واحد . أما الانجيل الرابع فيؤكد ان العشاء الأخير وبالتالي تأسيس الإفخارستيا ، قد تم نهار الجمعة (٥) .

الخميس مساء) ، وان الصلب قد حصل يوم الجمعة . ولكن هذا اليوم لم يكن يوم الفصح ، الواقع حسب التقويم اليهودي في ١٥ نيسان الذي هو يوم ذبح الخراف الفصحية . فالصلب ، حسب يوحنا ، حصل عشية الفصح لأن الذين اتوا بيسوع صباح الجمعة من عند قيافا إلى بيلاطس « لم يدخلوا دار الولاية لكي لا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل للفصح » (يو ١٨ : ٢٨) . وكان هذا اليوم « يوم التهيئة » وكان يوم السبت الذي يليه « يوما عظيما » (يو ١٩ : ١٤ ، ٣١) . وهكذا فان عيد الفصح في تلك السنة ، حسب شهادة يوحنا ، كان يوم السبت وليس يوم الجمعة .

لقد قدمت حلول عديدة لتفسير هذا التعارض بين الانجيل السينايتية وانجيل يوحنا . يعتقد بعض الباحثان ان مصطلحات يوحنا ذات دوافع لاهوتية لانها تجمع بين صلب المسيح وذبح الخراف لكي تظهر ان المسيح هو الحمل الفصحي الحقيقي « الرافع خطايا العالم » . اقترح مؤرخا جوبير حلا آخر لهذه المشكلة (٦) اذ افترض تسلسلا زمنيا جديدا لاسبوع الآلام لا يكون فيه العشاء الاخر مساء الخميس (يوم الجمعة) بل مساء الثلاثاء (يوم الاربعاء) . اما يوم الصلب فيبقى يوم الجمعة . يرتكز هذا التفسير الخاص على تقويمين يهوديين كانا يستخدمان في ايام يسوع . نعرف من كتاب اليوبيلات (٧) ان جماعة قبران كانت تستعمل تقويمها شمسيا تتألف فيه السنة من ٣٦٤ يوما وفيه تقام الاعياد الرئيسية في اليوم نفسه من الاسبوع . فلربما بقي هذا التقويم متداولاً بين اليهود حتى السنة ١٥٢ ق.م. اذ وصل المكابيون إلى رئاسة الكهنوت وتبنوا التقويم القمري الذي كان سائداً في العالم الهليني . فاذا ما اقيم الفصح حسب التقويم الشمسي لوقع سنويا مساء الثلاثاء (يوم الاربعاء) وهذه ليست هي الحال في التقويم القمري . ولقد اوضح جوبير نظريته بالقول بان يسوع ربما اتبع التقويم الشمسي المستعمل في قبران واحتفل بالفصح يوم الثلاثاء مساء . هذا الجدل يخص ثلاثة ايام للقاء القبض على يسوع ومحاكمته وصلبه وليس يوما واحدا كما ورد في الانجيل .

لقد وجد بعض العلماء هذا الحل مفيدا بيد ان البعض الآخر انتقده لانه يخالف الرواية الانجيلية ، ولا ينسجم مع سردها لاحداث

الآلام . ان رؤساء الكهنة ارادوا اعتقال يسوع مع تحاشي اشارة اتباعه . لذلك لجأوا الى السرعة والفعالية . ولو دامت المحاكمة بالفعل ثلاثة ايام لما استطاع اليهود تحاشي الاضطراب . وهناك صعوبة اخرى تقف امام هذه النظرية . اذ كيف يمكن ليسوع ان يحتفل بالفصح حسب التقويم القمرائي ما دام قد احتفل بكل الاعياد حسب التقويم الاورشليمي ؟ تعلم تماما انه زار اورشليم في العيد ، كما فعل كل السكان الذين لا ينتمون الى جماعة قمران . ولا توجد اية اشارة دل على ان احدا اتهمه باتباع تقويم جماعة قمران « الهرطوقي » . ولو اتبع يسوع التقويم القمرائي لاستخدم اخصامه هذا ضده محاولين عزله عن الجماهير . والجدير بالذكر ان يسوع كان في اورشليم في عيد تجديد الهيكل كما ورد في يوحنا (١٠ : ٢٢) . في هذا العيد كان يحتفل بذكرى اعادة تكريس الهيكل زمن الحروب المكابية السنة ١٦٥ ق.م . بعد ان دنسه انطيوخوس ابيغانوس . ولم يكن يقام حسب التقويم الشمسي المتبع آنذاك من الاسانيين لأنهم كانوا يرفضون ويمقتون كل ما من شأنه ان يذكرهم بالمكابيين حتى اذا كان ذا صلة بتجديد الهيكل (٨) .

هناك نظريات اخرى قدمت للتوفيق بين الاناجيل السينابتيكية وانجيل يوحنا . فواحدة تقول بان اليهود الجليليين كانوا يتكلمون بالفصح قبل يهود اورشليم بيوم واحد . واخرى تذكر ان يهود اورشليم وكل فلسطين احتفلوا في تلك السنة بالفصح يوم السبت بينما احتفل به يهود الشتات يوم الجمعة . فاذا صححت هذه النظرية يكون انجيل يوحنا هو الذي يذكر الموعد المحدد الصحيح فيما يحور انجيل مرقس هذا الموعد لكي يلائم تقليد كنيسة روما (٩) . كل هذه التفسيرات قد تكون ممكنة ولكن لا يستطيع دعمها بحقائق لا يرمى اليها الشك .

ينزع علماء العهد الجديد اليوم الى قبول الترتيب المتبع في انجيل يوحنا لاسبوع الآلام ، بمعنى ان يسوع اقام العشاء الاخير يوم الخميس مساء - ولم يكن ذلك اليوم يوم الفصح - لكي يجعله بمثابة عشاء تذكاري (١٠) . هذا الترتيب لا يدحض ما ورد في الاناجيل السينابتيكية انما يعطي تفسيراً مقبولاً لروايتهم التي تجعل من العشاء الاخير عشاء الفصح . واما بالنسبة ليسوع وتلاميذه فقد كان هذا العشاء طقساً فصحياً وفيه تأسس طقس الإفخارستيا

الجديد . ووصف العشاء الاخير في يوحنا ١٣ وكذلك معنى الإنخارستيا في يوحنا ٦ يشهدان لذلك . وكذلك فالمنامخ العام في الاصحاح ١٣ يوحى بالفصح : فالذهاب الى اورشليم كان بعد الغروب (يو ١٣ : ٣٠) ، وكان الطاعمون متكئين (يو ١٣ : ٢٣) . كل هذه الدلائل تشير الى ان العشاء كان عشاء الفصح .

كانت فيما مضى الاناجيل السينابئية ، وعلى الاخص انجيل مرقس ، موضوع تقدير في الاوساط العلمية من حيث دقتها التاريخية . وكلما تعارضت مع انجيل يوحنا كان العلماء يقفون الى جانبها . والآن بدأت القيمة التاريخية لانجيل يوحنا تبرز وتزداد واصبح من المسلم به ان التقليد المتجسد في انجيل يوحنا مستقل عن الاناجيل السينابئية الا انه بنفس القدم والاصالة اذا لم يبرها في بعض اقسامه (١١) .

محاکمات يسوع

المسألة الاخيرة التي ينبغي اثارها في موضوع التسلسل الزمني وتاريخية الاحداث هي فيما اذا كانت المحاكمة امام مجلس اليهود تاريخية ام لا . وهل سبقت المحاكمة السياسية التي جرت امام بيلاطس ؟ بكلام آخر ، هل نجد في الاناجيل سردا ذا تسلسل تاريخي يمتد من العشاء الاخير وحتى اعلان بيلاطس عن حكم الموت على يسوع ؟

ولقد ابدت الاناجيل اهتماما عظيما لتسلسل الاحداث في هذه الحقبة القصيرة من الزمن . فقد القي القبض على يسوع ليلا تحاشيا لاثارة الشعب بين الشعب . كما ان استعداد يهوذا لقيادة الجنود الى الحثمانية جعل من مساء الخميس الوقت الاكثر ملائمة لمجلس اليهود ليقبضوا على يسوع ، لان اليهود كانوا منهمكين بتعبيد الفصح . ثم اخذ يسوع الى حنايا رئيس الكهنة المعزول من الحاكم الروماني السابق لبيلاطس والذي كان تأثره على شؤون الشعب اليهودي لا يزال قائما . حنايا هذا سأل يسوع عن تعليمه وعن تلاميذه (يو ١٨ : ١٢ - ١٤ ، ٢٠ - ٢١) الا ان المحاكمة الحقيقية ابتدأت حين اقتيد يسوع الى رئيس الكهنة قيافا . ووصلت المحاكمة الى قمتها عند سؤال قيافا له : « انت المسيح ابن الله الحي ؟ »

(مر ١٤ : ٦١ وما يوازيها) . فكان جواب يسوع بعد صمت مطبق :
« انا هو وسترون ابن البشر جالسا عن يمين قدرة الله وآتيا على
سحاب السماء . » (مر ١٤ : ٦٢ وما يوازيها) . هذا الجواب
كان كشف المسيح عن سر شخصه . وهذا ما فهمه قيافا لذلك
« مزق ثيابه وقال : ما حاجتنا الى شهود ؟ » . وبعمله هذا اظهر
قيافا ان يسوع وجد مذنبا بجرم التجديف . وعلان يسوع نفسه
ابن الله كان خطيئة لا تغتفر ، لذلك قال لاعضاء المجلس اليهودي :
« قد سمعتم تجديفه ، فما هو حكمكم ؟ » . فكبان الجواب :
« انه مستوجب الموت » (مر ١٤ : ٦٣ ، متى ٢٦ : ٦٥) .
عند ذاك حكم عليه بالموت لأن « من جدف على اسم الرب يقتل » ،
ترجمه كل الجماعة رجما . الغريب كالوطني عندما يجدف على
الاسم يقتل » (لاويين ٢٤ : ١٦) . لكن تنفيذ حكم الاعدام لم يكن
من صلاحيات المجلس اليهودي : « لا يجوز لنا ان نقتل احدا »
(يو ١٨ : ٣١) . هذا الشأن ، أي محاكمة يسوع امام مجلس اليهود ،
شكك فيه بعض البحاثة واللاهوتيون المعاصرون وضربروا صفحا عما
ذكره يوحنا عن عدم استطاعة مجلس اليهود من تنفيذ حكم الاعدام ،
بيد ان بعض علماء التاريخ المعاصرين يعتقدون العكس تماما .
والسؤال يصبح : اذا كان المجلس لا يملك هذا الحق فما هو هدف
المحاكمة اللاهوتية المدونة في الاناجيل ؟ هل حصلت فعلا أم كانت ،
كما يدعي التقاد ، من خلق الكنيسة الاولى لاجل تبرئة
الرومان من موت يسوع والقاء اللوم على السلطات الدينية
اليهودية ؟

يحاول بول ونتر ، في كتابه « حول محاكمة يسوع » ، البرهان
على عدم اشتراك السلطات اليهودية مباشرة في محاكمة يسوع ،
وان ما فعلته بهذا الصدد كان نتيجة الضغط الروماني . وان
الكنيسة والانجيليين شوخوا هذه الحقائق لانهاهم اورشليم وارضاء
روما . صحيح انه يوجد في الاناجيل مظهر عدائي للكهنوت اليهودي ،
ولكن هذا العداء غالبا ما يعكس الوضع التاريخي وتخوف الاوساط
الحاكمة في اورشليم من يسوع ومفاومتها له . وبمسا ان بول ونتر
وهانس ليتزمان وغيرهما من العلماء يؤكدون حق السلطات اليهودية
في انزال عقوبة الموت ، فهم يشككون بالتالي بما ورد في الانجيل بهذا
الشأن ويتساءلون : اذا كان مجلس اليهود قد حكم على يسوع

بالموت ، كَمَا زعم النص الانجيلي ، فلماذا لم يتم هو بتنفيذ ذلك الحكم؟ من جهة أخرى نرى شروين وأيت يدافع بقوة وبكثير من الإقناع عن المحكمتين الواردتين في الانجيل . فيقول ان الدولة الرومانية كانت تعطي حق الحكم الذاتي الكامل للمدن وللمقاطعات التي قدمت لها خدمات جمة ، وكانت تعتبرها مقاطعات او « مدنا حرة » (١٢) . وبما ان اورشليم لم تحظ بدرجة « المدينة الحرة » فلم يعط لليهود حق انزال عقوبة الاعدام ، بل ما كان يسمح به هو ممارسة معتقداتهم الدينية . واما حكم الاعدام فكان يمكنهم ان ينزلوه فقط بالذي يدخل الى الهيكل رومانيا كان ام يهويا . لذلك كان يوجد على باب الهيكل اعلان يقول : « لا يحق لأي امي أن يدخل رواق الهيكل . من يقبض عليه هناك يكون قد ارتكب خطيئة مستوجبة الموت » . وكان هذا نتيجة اتفاق بين الرومان ومجلس اليهود ، كما يقول يوسيفوس . ولم يكن للسلطة الدينية اليهودية الحق في انزال عقوبة الاعدام في الحالات الاخرى (١٣) . كتب يوسيفوس ان يعقوب اخي الرب اعدم على نحو غير قانوني نتيجة فريق متطرف من مجلس اليهود ودون موافقة السلطات الرومانية . ولكن عدم وجود سلطة لمجلس اليهود على حياة رعاياه لا يعني عدم تمكنه من اجراء المحاكمة دون التنفيذ . فالحاجة كانت ملحة لفصل يسوع عن الجماهير . لذلك اجريت له محاكمة امامه لظهاره امام الجماهير مجرماً ومستوجباً الموت وفق الشريعة . فالمحاكمة كانت ضرورية اذا ما اراد مجلس اليهود تغيير موقف الشعب من يسوع .

وجه الدين اقتابوا يسوع امام بيلاطس اتهامات عديدة لم يكن بينها التجديف . لانهم كانوا عارفين بان بيلاطس لن يتصرف بحزم تجاه خطأ لاهوتي صرف ، لذلك اضافوا الاتهامات السياسية التي ارتكز عليها قرار بيلاطس . فزعموا انهم وجدوا يسوع « يثير الفتنة في الشعب » ، وانه « يمنع ان تدفع الجزية لقيصر » ، وانه « يدعي بأنه المسيح الملك » (لو ٢٣ : ٢ - ٣) . كل هذه الاتهامات تحمل معنى سياسياً ولكن الاتهام الاخير كان الاشد خطورة مما اثار انتباه بيلاطس وجعله يسأل يسوع : « انت ملك اليهود ؟ » (متى ٢٧ : ١١) ، مر ١٥ : ٢ ، لو ٢٣ : ٣ ، يو ١٨ : ٣٣) . في جوابه كشف يسوع عن طبيعة ملكه قائلاً ان مملكته ليست من هذا العالم ، اي انه

ليس ملكا بالمعنى الذي يفهمه بيلاطس . وبالتالي فإنه ليس صاحب ثورة ومثيرا للشغب بل هو ملك أتى الى العالم « ليشهد للحق » (يو ١٨ : ٣٧ - ٣٨) .

ولأول مرة تقدم رؤساء اليهود « بالاتهام الديني » قبل ان يعلن بيلاطس الحكم الرسمي : « لنا ناموس وبحسب الناموس يجب ان يموت لأنه جعل نفسه ابن الله » (يو ١٩ : ٧) . هذا الناموس نجده في اللاويين ٢٤ : ١٦ . ومن ثم لجأوا الى اتهام آخر ذي طابع سياسي : « ان اطلقت هذا فلست محبا لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكا يتقاوم قيصر » (يو ١٩ : ١٢) . عندئذ « جلس بيلاطس على كرسي الولاية » واسلم يسوع للصلب . يرى شروين وآيت انه لا يوجد في تلك الممارسات اي شيء يتعارض مع ما نعرفه من العادات الرومانية في المحاكمات . كما انه يجد وصف يوحنا للمحاكمة مقنعا وكذلك قبول بيلاطس الحكم تحت ضغط الشعب (١٤) . اذن خضع يسوع لمحاكمتين ، واحدة لاهوتية واخرى سياسية ، ووجد في كليهما مذنباً (١٥) .

ويميل عدد من البحاثة المعاصرين اكثر فاكثرا الى اعتماد ترتيب الاحداث التي تلي العشاء الاخير كما هي وارده في الاناجيل . ولكن بالإضافة الى قصة الآلام ، تمدنا الاناجيل المدونة بدلائل قلة لتحديد موعد الاحداث في حياة يسوع . ان سرد الاحداث يسير الى حد ما وفق التسلسل الزمني . ولكن ، كما رأينا سابقا ، نجد قسما منها رتب وجمع حسب الاهداف اللاهوتية . ولقد اتخذت بعض الاحداث المنفصلة من اطارها التاريخي أهمية فريدة في ضمير الكنيسة . وجمعت الاحداث من التقليد الشفهي الواسع الانتشار الى مواد تقليدية اخرى . ولذلك علينا الآن النظر في كيفية قبول الكنيسة للاناجيل ودفاعها عنها .



الفصل الخامس

قبول الكنيسة الاولى للانجيل

لم تكتب الاناجيل بشكل يشمل كل المعلومات التي كانت معروفة آنذاك عن يسوع (يو ٢٠ : ٣٠) . وصار تأليفها في وقت كان فيه التقليد الشفهي غنيا جدا بالروايات المنقولة عن الرسل والشهود العيان الآخرين . لذلك ظل التقليد الشفهي حتى منتصف القرن الثاني محتفظا بسلطة معادلة لسلطة الاناجيل وتعايش التقليد الشفهي والتقليد الكتابي في الكنيسة .

وقد اعتمد آباء الكنيسة الاولى هذين التقليدين . فالقديس اغناطيوس الانطاكي الذي عاش في اوائل القرن الثاني ذكر معرفته بمواد موجودة في انجيلين أو ثلاثة . بيد انه من الصعب التأكد في ما اذا كانت معرفته هذه تتبع من الاناجيل ام من التقليد الشفهي الذي سمعه ممن عرفوا تلاميذ الرسل او من ذكريات بقيت بعد قراءته للاناجيل (١) . وفي منتصف القرن الثاني استشهد القديس يوستينوس بالانجيل واعتمد كذلك على التقليد الشفهي . فكتب في حوارته مع تريفن (٤٧ : ٥) على لسان يسوع : « سأحاكمكم على النحو الذي اجدكم فيه » . هذا القول لا يرد في الاناجيل الاربعة ولذلك يغلب الظن على انه استقى من تقليد شفهي (٢) .

بالرغم من ان كتاب (بتشديد التاء) القرن الثاني المسيحيين كانوا يعتبرون للتقليد الشفهي سلطة معادلة لسلطة التقليد المكتوب؛ فانهم أخذوا يظهرن ميلا متزايدا الى الاعتماد على الروايات الانجيلية المدونة . هذا الميل حصل نتيجة لانتشار المسيحية في العالم الهليني ولقيام ادب هرطوتي ولبروز اولى المحاولات لوضع نانون للعهد الجديد .

وسوف ندرس في هذا الفصل طريقة اقرار قانونية اسفار العهد الجديد .

الانجيل الابوكريفية

لقد وجد الى جانب الانجيل الاربعة عدد من الكتب الاخرى التي الفت في البرهة نفسها بهدف نقل حياة يسوع وتعاليمه . جل هذه الكتب دون اما للمء ثغرات الكتب القانونية بواسطة قصص غالبا ما سادها الطابع الخيالي او لنشر بعض التعاليم الغنوصية . والذي يقرأ الانجيل الابوكريفية بعد قراءة الانجيل القانونية يجد نفسه في عالم مختلف جدا ، مليء بالمعجزات والاساطير ، خال تقريبا من التفاصيل التاريخية (٣) .

تحاول انجيل الطفولة مثلا مدنا بمعلومات عن طفولة يسوع غير موجودة في الانجيل القانونية . هذه النصوص لا تعكس الجو الحقيقي لحياة يسوع ولا تصف يسوع كطفل حقيقي كما كان (٤) . كذلك تتعارض صورته في هذه الانجيل مع التي تعطينا اياها الانجيل الاربعة . فهو كطفل يجترح العجائب . وهنا يخطر لمن يؤمن بالعجائب الواردة في انجيل الطفولة السؤال : لم لم يحول يسوع الحجارة الى خبز او لماذا لم يقذف بنفسه من جناح الهيكل ؟ نجد في النصوص الابوكريفية للعهد الجديد هذا النوع من العجائب التي طلب الشيطان من يسوع اجترأها . فيستجيب يسوع مظهرا قدرته الالهية امام كل الشعب ، ويفعل ذلك كلما تجدها احد (٥) . لقد استعاضت انجيل الطفولة عن التجسد التاريخي الظاهر في الانجيل القانونية بتجسد خرافي ذي طابع دوسيتي (٦) .

يوجد في انجيل توما ، كما في عدد من الانجيل الابوكريفية

الأخرى ، تأثير للمفاهيم الغنوصية . ولقد أوجد الغنوصيون نظاما معتقدا جدا لوصف بنية العالم السماوي المنفصل عن العالم المادي . ولم يبدوا اي اهتمام بيسوع التاريخي . وكانوا اول من فصل « يسوع » عن « المسيح » ، وبنوا كل تفسيرهم للكتاب المقدس على هذا الفصل الصارم . واعتبروا ان المسيح الالهي الذي هو فيض من الالوهة الازلية قد حل على يسوع الانسان اثناء المعمودية وتركه قبل الالام . ولا يوجد في انجيل توما اي اطار قصصي او تاريخي بل يتألف فقط من اقوال يسوع السرية . ويبتدىء الكتاب هكذا :

« هذه هي الاقوال السرية التي نطق بها يسوع الحي والتي دونها ديدموس يهوذا توما . قال يسوع : من يجد تفسيراً لهذه الكلمات لن يذوق الموت » (٧) .

يتبع هذه المقدمة اكثر من مائة قول سرى لیسوع . واذا ما تازنا بعض هذه الاقوال بالاقوال المماثلة التي حفظتها الكنيسة وادخلتها في اناجيلها القانونية نراها معكوسة تماما . فعل الغنوصيون هذا لينشروا تعاليمهم . يورد انجيل متى على لسان يسوع قوله : « متى صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراءون » (٦ : ٢) . « ومتى صليت فلا تكونوا كالمرائين » (٦ : ٥) ، « ومتى صتمت فلا تكونوا معبسين كالمرائين » (٦ : ١٦) . نفهم من ذلك ان يسوع كان يتوقع من اتباعه ان يتصدقوا ويصوموا ويصلوا . لم يقل يسوع « اذا » فعلمت كذا وكذا بل « متى » فعلمت . هذا يعني انه لم يترك الامر لاختيارنا بل جعله امرا مفروغا منه . وعلى خلاف ذلك فان الرسل في انجيل توما يسألون يسوع عما اذا كان يريدون ان يصلوا ويصوموا ويتصدقوا ، فيجيبهم قائلا : « لا تتكلموا بالكذب ولا تفعلوا ما تكرهونه » (القول الخامس) . وفي القول الرابع عشر يتكلم بطريقة اكثر وضوحا ويذهب حتى الى رفض الصوم والصلاة والصدقة كليا حين يقول : « اذا صتمت فسخططون الى انفسكم واذا صليت تدانون واذا تصدقتم تؤذون انفسكم » . وعندما طلب اليه اتباعه ان يصوم ويصلي اجابهم : « اية خطيئة ارتكبت واي اثم سيطر علي » (القول ١٠١) . وهذا يوضح تماما ان هذا الانجيل لا يشهد للمسيح بل للغنوصيين وتعاليمهم .

هنالك اناجيل ابوكريفية اخرى يصعب تحديدها هويتها لأننا لا نملك نصوصها الكاملة بل اجزاء منها . ولأن هذه الاجزاء تماثل كثيرا بعض المواد الموجودة في الاناجيل السينابتيكية ، يرجح ان يكون مؤلفو هذه الاناجيل قد اعتمدوا على الاناجيل القانونية اكثر من اعتمادهم على التقليد الذي يسندها . يبدو انجيل بطرس ، الذي كتب في منتصف القرن الثاني ، انه معتمد على الاناجيل القانونية . لكن الاحداث التي يرويها لا تتوافق مع المحتوى التاريخي للاناجيل السينابتيكية . وتتعدى حدود فلسطين القرن الاول ويمكن ان تكون قد حصلت في اي مكان آخر . وفي حين ان الاحداث في الاناجيل القانونية ترتبط بزمان معينين ، نجدها لا ترتبط ارتباطا كليا في انجيل بطرس . مع ذلك يبقى ان الفرق الاساسي بين هذا الانجيل واناجيل الكنيسة يكمن في لهجته الدفاعية ، فيستعيز عن الشهادة للمسيح التي هي الميزة الرئيسية للاناجيل القانونية « ببرهان مباشر للحقيقة » (٨) . وبينما لا يوجد في كتاب الكنيسة وصف حي للقيامة نجد في انجيل بطرس الوصف المفصل التالي : « في الليلة التي بزغ فيها يوم الرب وفيما كان الحراس يتناوبون الحراسة اثنتين اثنتين سمع صوت عظيم قرأوا السموات مفتوحة ورجلين يهبطان منها بنور عظيم ويقتربان من القبر . اما الحجر الذي كان على باب القبر فأخذ يتدحرج جانبا حتى أصبح القبر مفتوحا ودخله الرجلان . . . ورأيا ايضا ثلاثة رجال خارجين من القبر ، وكان اثنان منهم يستندان الثالث ويتبعهم صليب . وكان رأسا الرجلين يتأطخان السماء بينما رأس الثالث الذي يقوده الاثنان يتجاوز السماء . واذا بهما يسمعان صوتا من السموات صارخا : « هل بشرت النيام ؟ » ، فأتى الجواب من الصليب : « نعم » (٩) . لا بد وان يكون استخدام وضع كهذا لاغراض دفاعية ولاشباع فضول الناس .

تختلف الاناجيل الابوكريفية كثيرا عن الاناجيل القانونية من حيث الشكل الادبي ، فلا يحتوي انجيل توما الذي نملك نصه الكامل على فرادة الشكل الادبي الذي للاناجيل القانونية . فالاناجيل الغنوصية اعادت احياء الاشكال الادبية القديمة التي كانت مستعملة قبل بزوغ المسيحية .

لقد اكتسبت الاناجيل القانونية بنيتها من الكرازة الرسولية التي تجاهلها الغنوصيون الذين وضعوا مؤلفاتهم لنقل آرائهم وخلق صورة ليسوع تخدم مآربهم . ولقد رفضت الكنيسة الكتب الابوكريفية لانها روايات اسطورية لا اساس تاريخية لها عن حياة يسوع واعماله (١٠) .

الكنيسة ومركيون

لقد اثارت محاولة مركيون (سنة ١٥٠ م) لوضع لائحة من قبله بكتب العهد الجديد المقبولة تحديا جديا للكنيسة . وحتى ذلك الحين لا يوجد اي برهان قاطع على ان الكنيسة كانت قد وضعت قانونا للكتاب المقدس ، بل كانت تقبل الاسفار المطابقة لايمانها . اما مركيون فحذف من قانونه اسفار العهد القديم كلها وابقى من العهد الجديد على انجيل لوقا باستثناء فصله الاولين ، وعلى عشر من رسائل بولس الرسول . مما لا ريب فيه ان مركيون قام بعمله هذا تحت تأثير غنوصي . فبدون قصص الطفولة يبدو يسوع في انجيل لوقا وكأنه منحدر مباشرة من السماء ، وبدون العهد القديم ليس كمحقق لوعود الله في التاريخ بل كفيض من العلى . توصل ترتليانوس الى القول بان مركيون « يجزئ الكتاب المقدس الى اجزاء حتى يتوافق مع افكاره الخاصة » (١١) .

ان تحدي مركيون اجبر الكنيسة ، وفقا لراي بعض الباحثين ، على وضع لائحة بالكتب المقدسة المقبولة لديها والتي يمكن اعتبارها مرجعا للحياة وتعاليمها . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل كان وضع قانون العهد الجديد لولا هذا الضغط الخارجي ؟ سؤال مثير يمكن ايضا طرحه حول عقيدة الثالوث القدوس التي جاءت كرد على الاريوسيين . من المؤكد انه لم يكن هنالك دور للتأثير الخارجي في تحديد قانونية سفر من الاسفار . والتزمت الكنيسة بكتبها التي كانت قد قبلتها دائما . وبعملها هذا حددت الكنيسة الاساس الذي بموجبه تحدد قانونية اسفار الكتاب المقدس . وكما اجابت الكنيسة عن السؤال حول هوية يسوع ، كذلك عبرت عن ايمانها في عقيدة الثالوث . وانها لم تتبدع ايمانا جديدا بل اعطت صيغة وتعبيرا ذاتيا عما كانت تعتقد به نتيجة الاعلان الالهي .

فقبل ان يأتي مركيون بقانونه الجديد ، كانت الكنيسة تعتمد على اناجيلها . لكنها احتاجت بعد ذلك الى اكثر من مائتي سنة كي تمهرها بخاتم الاعتراف القانوني النهائي . ولم تختَر الكنيسة كتبها على نحو اعتباطي ، بل اعتمدت بعض المقاييس لتحديد قانونية تلك الاسفار . منها ان يكون السفر مكتوباً من قبل الرسل انفسهم او من قبل تلاميذهم ، وان تكون تعاليمه من اصل رسولي واستخدمت في العبادة الجماعية . وبينما كانت المطابقة لمقياس واحد تعتبر غير كافية لادراج اي كتاب في قانون العهد الجديد ، لم تكن المطابقة لكل المقاييس هي الشرط للادراج . فلم يكن سفر الرؤيا من الاسفار التي تقرأ في الخدم الالهية - كما هي الحال اليوم ايضا - بالرغم من كونه من اصل وتأليف رسولين . وعندما برزت في الغرب بعض التساؤلات حول قانونية الرسالة الى العبرانيين انبرى القديس ايرونييموس للدفاع عن قانونيتها استنادا الى استخدامها في العبادة . وما دام السفر من انتاج الكنيسة ويتلى فيها فليس من الضروري معرفة مؤلفه (١٢) . والعرب ، مع اخذه حجج القديس ايرونييموس في الدفاع عن الرسالة الى العبرانيين بعين الاعتبار ، كان يعطي للسلطة الرسولية الالهية القصوى في كتاب متنازع على قانونيته ، على عكس الشرق الذي كان يميل دائما الى التشديد على محتوى الكتاب اكثر منه على مؤلفه .

ان السلطة الرسولية المنوطة بالاناجيل سبقت قانونيتها ، اذ ان الكنيسة لم تعط الاناجيل سلطة بل اعترفت فقط بسلطتها الذاتية . عوامل عدة ساهمت في تكوين قانون العهد الجديد ، ولكن العامل الاكثر اهمية هو الهام الروح القدس . والروح الذي الهم الانجيليين في كتابة اناجيلهم هو نفسه الذي الهم الكنيسة في قبول هذه الاسفار . لم يستطع مركيون ، وهو يعارض تقليد الكنيسة ، ان يميز بين الاسفار الملهمة والاسفار غير الملهمة . والمهم (theopneustos) هو « الموصي به من الله » (٢ تيمو ٣ : ١٦) الذي لا يتركز على ادراك بشري بل على عمل الله . فسلطة الاناجيل او أي جزء من العهد الجديد ، ليست في الكتب نفسها ، ولا تتركز على سلطة الكنيسة التي فيها وجدت ، بل تأتي من المسيح الذي تشهد له الاناجيل المهمة من الروح وتعلنه في حياة الكنيسة .

لم تقبل الكنيسة قانون مركيون ليس فقط لأنه ناقص بل لأن

جامعه رجل غنوصي سعى الى تجوير النص لكي يعكس الصورة التي يرغبها هو عن يسوع . واعتمدت الكنيسة في حريها ضد مركيون الاناجيل الاربعة كي تظل صورة يسوع غير مثووهة .

« الانجيل الرباعي » (Diatessaron)

والـ (Euaggelion tetramorphon)

في النصف الثاني من القرن الثاني برز السؤال : لماذا توجد اربع روايات عن حياة يسوع وتعاليمه ؟ ولماذا كل هذا الصراع القائم حول الفروقات والمصاعب فيما بينها ؟ فلماذا لا توجد رواية واحدة متجانسة تعتمد الروايات الاربعة ؟ هذا السؤال طرح نفسه على تاتيانوس المناضل المسيحي الذي ولد في منطقة ما بين النهرين وعاش في روما زمنا طويلا . فوضع كتاب « من خلال الاربعة » او « الانجيل الرباعي » حوالي السنة 170 م . استخدمت بعض الكنائس الشرقية هذا الكتاب وبقي مستخدما في الكنيسة السريانية حتى القرن الخامس حين استبدل اسقف رها رابوله الاناجيل « المدمجة » بالاناجيل « المنفصلة » الاربعة . يشكل وجود هذا الكتاب دليلا قاطعا على ان كنيسة القرن الثاني كانت قابلة للاناجيل الاربعة . اما النجاح الذي حظي به « الانجيل الرباعي » في الكنائس الشرقية فيعزى الى كونه عرضا للرواية الانجيلية خال من التناقضات التي غالبا ما تظهر عند مقارنة الاناجيل الاربعة .

فقد النص الاصيل لكتاب تاتيانوس ، لذلك لا نعلم حتى الآن ما اذا كان قد وضعه اصلا بالسريانية ام باليونانية . واستنادا الى ترجمات متأخرة نعلم انه بدأ انجيله وانهاه بايات من انجيل يوحنا . وهذا لا يعني انه اتبع تصميم الانجيل الرابع بل يعتقد انه فضل ترتيب الاحداث حسب الاناجيل السينائية مستثيا قصة الالام حيث اوردها كما في الانجيل الرابع (13) . وقد اثبت البحث الاتجيلي الحديث صحة هذا الرأي .

هل اظهر تاتيانوس ميولا غنوصية في مؤلفه ؟ يشهد القديس ايريناوس بان تاتيانوس كان تلميذا ليوستينوس الشهيد وانه ترك روما بعد استشهاد معلمه . ولعله وقع بعد ذلك تحت تأثير بعض

الإوساط الغنوصية . فهل وضع كتاب « الإنجيل الرباعي » قبل أو بعد قبوله لآراء فئة الإنكراتيين (المسكين) الغنوصية التي كانت تنكر للزواج قدسيته وتحرم استعمال الخمر في سر الشكر ؟ ينزع بعض العلماء اليوم ، إلى القول بأن كتاب تاتيانوس ، بصرف النظر عن تاريخ كتابته ، خال من الميول الغنوصية ، لكن المراجع القديمة تخالف هذا الرأي . فثيودوريتوس استقف قورش (٣٩٣ — ٤٦٦) ، الذي عرف نصاً يونانياً لكتاب تاتيانوس ، يشير إلى أن هذا قد حذف سلسلة الانساب الدالة على أن يسوع هو من سلالة داوود حسب الجسد تحت تأثير التعليم الغنوصي .

وسواء كان « الإنجيل الرباعي » ذا ميول غنوصية أم لا ، فلا يمكن اعتباره عملاً الهيياً — إنسانياً كالإنجيل بل وثيقة من صنع بشري . ناهيك عن فقدان التنوع الموجود في الإنجيل الملهم والاختلاف في أظهار كل غنى المواد الإنجيلية ، وذلك نتيجة عملية التنسيق التي أجريت والتي تفرض حدوداً لا يمكن أن يتعداها المرء في اختيار النصوص . إن كل إنجيل ، بالرغم من توافقه في الأساس مع الإنجيل الأخرى ، يعطي تفاصيل خاصة به . وفي قراءة الإنجيل الأربعة تظهر صورة للمسيح أوضح . فلا يعني كتاب « الإنجيل الرباعي » عن الإنجيل الأربعة لأنه لا يتقل كل ما يتقل . وانتهت الكنيسة إلى رفض كتاب تاتيانوس واعتباره عملاً إنسانياً وفضلت البقاء على تعددية الإنجيل الأربعة .

كتب القديس إيريناوس في أواخر القرن الثاني إن الإنجيل هي « ركيزة الإيمان وعموده » التي بشر بها الذين « البسوا قوة من العلاء عندما حل الروح القدس عليهم وعلّثوا بالمعرفة الكاملة » . لقد نقل متى ومرقس ولوقا ويوحنا الإيمان « بآله واحد صانع السماء والأرض الذي تكلم عنه الناموس والأنبياء ، وبمسيح هو ابن الله الوحيد » (١٤) . وهكذا لم يفضل إيريناوس بين الإنجيل واعتبر أن الهراطقة بشروا بأرائهم الخاصة فافسدوا بذلك « قانون الإيمان » . لم يكن لديهم بشارة خلاصية فعارضوا التقليد واعتبروا ذواتهم أكثر حكمة من شيوخ الكنيسة ومن الرسل أنفسهم . وتابع إيريناوس القول بأنه حتى لو لم تكتب الإنجيل لكنا ملزمين بـ « قانون التقليد » الذي « سلمه الرسل للذين جعلوهم مسؤولين عن الكنيسة » (١٥) .

يشدد القديس إيريناوس على وجود أربعة أنجيل « دون زيادة أو نقصان » (١٦) . يقول : هنالك ، في الواقع ، أنجيل واحد « بأربعة وجوه من حيث الشكل يجمعها روح واحد » ، أما الذين يغيرون نمط الإنجيل ويقدمون أكثر أو أقل من أربعة أشكال له (Euaggelion Tetramorphon) ، فهم اناس مهوورون يقطعون انفسهم عن الاناجيل والكنيسة وعن « شركة الاخوة » . وقال إيريناوس عن الغنوصيين انهم « اتوا بتأليفهم الخاصة متباهين بامتلاكهم أنجيل تفوق العدد الموجود » (١٧) . وأكد على ان هذه الاناجيل لا تمت بصلة الى اناجيل الكنيسة التي تتضمن وحدها الهام الروح القدس . وكما اشرنا سابقا حور الغنوصيون النص الكتابي حسب ميولهم الخاصة لأنهم تجاهلوا الكرازة الانجيلية التي هي بمثابة « المسودة الاصلية » لكل تعليم انجيلي .

لقد دافع إيريناوس عن تقليد الكنيسة ضد هجمات مؤلفي الادب الابوكريفي وكذلك ضد مركيون وتاتيانوس اللذين لم يتقنا كليا بالاناجيل وارادا الانقاص من موادها للوصول بها الى المستوى المقبول منها . فيتضح اذن ان الكنيسة قد التزمت بكتبها ودافعت عنها معتبرة اياها معبرة عن ايمانها وحياتها . كذلك رفضت بحزم انقاصها وحافظت عليها كاملة . فالاناجيل كتبت لاعلامنا عن طبيعة المسيح الانسانية وعن طبيعته الالهية . وهي تستمد سلطتها من المسيح نفسه الذي وجدت لتشهد له .

حرصت الاناجيل كل الحرص على تحديد زمان ومكان وقوع الاحداث التي وصفتها . واطهرت كيف اصبح الله انسانا ودخل التاريخ وعاش بيننا ومات كانسان ، وذلك خلافا للغنوصيين الذين خلطوا بين الالهى والانسانى ورفضوا الاقرار بامكان اتحادهما .



الفصل السادس

يسوع واليهود والامم

تعكس الانجيل المقبولة من الكنيسة حياة فلسطين في القرن الاول وتعطي معلومات واضحة عن الزمان والمكان اللذين عاش فيهما يسوع . فلوقا الانجيلي مثلا يصف بدقة الجو الديني الذي نشأ فيه يسوع وذلك عند عرضه لطفولته . ويظهر جليا ان يسوع نهض برسالته العامة في وسط شعبه وانه وجه بشارته اليهم قبل ان يوجهها الى الامم . اما الاحداث المدونة في انجيل بطرس الابوكريفي فيمكن ان تحصل في اي مكان . كذلك يمكن نسبة اقوال يسوع المدونة في انجيل توما الغنوصي الى اي معلم من معلمي العصر الهليني ما عدا يسوع . ومع ذلك فلا تعطي الاحداث المدونة في انجيل بطرس ولا الاقوال المسجلة في انجيل توما صورة كاذبة عن الجو التاريخي وعن الحياة في وطن يسوع والتقاليد الرائجة فيه .

لم يكن لليهود ايام يسوع نظام موحد ، اذ اصبحت اليهودية فقط بعد سقوط اورشليم وخراب الهيكل السنة ٧٠ . تغيرت حصرا بالنظام الرياني (١) . وقبل ذلك كان يوجد جماعات متعددة وميول مختلفة وكان النظام المتبع منفتحا على التأثيرات الخارجية . وهذا ما تؤكد مخطوطات البحر الميت . حتى الاسانيون انفسهم ، بالرغم من

انعزالهم عن الجماعات الاخرى ، فقد تعرضوا لتاثيرات خارجية ولم يكونوا منعزلين كلياً عن العالم المحيط بهم .

يسوع والحركات الدينية اليهودية

كان يقطن في فلسطين ، زمن يسوع ، حوالي النصف مليون يهوديا . ونعرف من شهادة المؤرخ يوسيفوس ، معاصر تلك الفترة ، ان ستة آلاف منهم كانوا ينتسبون الى الفريسيين وحوالي الاربعة آلاف كانوا آسانيين ، وان الصدوقيين كانوا اقل من جماعة قمران عدداً . وعلى الرغم من صغر هذه الجماعات فانها كانت تمثل اقوى الحركات الدينية المسيطرة في اليهودية . وكانت تلك الشيع في منازعات مستمرة فيما بينها مع الحفاظ على الانتماء التام الى اليهودية . وكان احتقار «شعب الارض» (am-haz-arez) جامعها . وكان معلمو الشريعة والمفسرون يتخذون موقف المتكبر المتعالي من الشعب الجاهل الامي . وكان الفريسيون يعتبرون ان « هؤلاء العالمة من الشعب الذين يجهلون الناموس هم ملعونون » (يو ٧ : ٤٩) . كذلك شبه التلمود ابن «شعب الارض» بـ « ذاك الذي يأكل خبز في حالة عدم الطهارة » (٢) .

ابتداءً نتعرف على الفريسيين والصدوقيين من خلال الاحداث الواردة في الاناجيل . فنجد الفريسيين ينتظرون مجيء ماسيا ويؤمنون بقيامة الاموات ويحافظون على تقليد الشيوخ ، فيما نجد الصدوقيين يخالفونهم في كل هذه المعتقدات : فلا انتظار لماسيا ولا قيامة للاموات ، ولتعلقهم بالجرف رفض لكل تقليد شفهي . لذلك هاجم يسوع يمسك الفريسيين بحرفية الشريعة وسفسطتهم ، وانتقد الصدوقيين لعدم معرفتهم الكتاب المقدس وقوة الله (متى ٢٢ : ٢٣ - ٢٨ وما يوازيها) (٣) . وفيما استمر وجود الفريسيين بعد تدمير الهيكل ، اختفى الصدوقيون عن المسرح التاريخي بعد النخبة ٧٠ م دون ان يتركوا اي اثر ادبي . ولأنهم لم يكونوا على اتصال بالانكار الجديدة قيل سقوط اورشليم فيقول بعد سقوطها غير مستعدين للتناغم مع الاوضاع التاريخية الجديدة . وكونهم ينتمون الى فئة الكهنوت الوالى الفئات اليسيرة جعلهم ينكرون فعالية الله في التاريخ . لذلك لم يكن لهم اي رجاء ماسياني يساعدهم على مقاومة تلك الاوضاع الجديدة

كما فعل الفريسيون . اوضح ستيفن ليبرتي ، في كتاب له بعنوان « العلاقات السياسية في عمل يسوع » ، ان يسوع حينما رفض تجربة الشيطان الاولى انكر « محبة الراحة » التي يمثلها الصدوقيون وفي رفضه الثانية انكر « التكبر امام الله » الذي كان يظهره الفريسيون (٤) .

كذلك رفض يسوع تجربة ثالثة هي الماسيانية القومية التي كانت تتمثل في « الغيورين » ، الجناح الثوري المتطرف لفئة الفريسيين . فقد رأى يسوع في اقتراح الشيطان ان تكون له كل ممالك العالم وعظمتها المثل الاعلى للغيورين الذين كانوا يؤمنون بان ملكوت الله لا يقوم الا باعادة الملك الى اسرائيل . وكان مبتغاهم السيطرة السياسية وليس الاهتمام الديني ، لذلك لم يترددوا في استخدام العنف من اجل تحقيق اهدافهم القومية ، فغدا من الطبيعي ان يعتبر يسوع مفهومهم لماسيا خاطئا . وقد حاول بعض الفريسيين بالاشتراك مع مؤيدي سياسة هيرودس انتيباس (اليهوديين) ان يوقعوا بيسوع عندما حاولوا اظهاره متعاطفا مع الغيورين ، وذلك عندما وجهوا اليه السؤال : « هل يجوز ان نعطى الجزية لقيصر ام لا » (مر ١٢ : ١٣ ، متى ٢٢ : ١٧) . وكانت صورة قيصر تطبع على العملة الرومانية . فقال يسوع : « اعطوا ما لقيصر لقيصر » ، وبما ان الانسان مخلوق على صورة الله ومثاله اكمل : « اعطوا ما لله لله » . وكان الغيورون يرفضون دفع هذه الضريبة ويعرفون بالحزب المعادي لروما .

وجه الفريسيون والهيروديون السؤال ليسوع « لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه الى حكم الوالي وقضائه » (لوقا ٢٠ : ٢٠) ، كل ذلك قصد اتهام يسوع بانه واحد من الغيورين لابعاده عن حياة الشعب (٥) . بيد ان جواب يسوع اذهلهم واضطرهم الى التفرق دون التعرض له بالرغم من رفضه رفضا قاطعا مياصرة القومية اليهودية (٦) .

يسوع والاسانينون

ما هي العلاقة بين يسوع والاسانين الذين لم يرد ذكرهم في العهد الجديد ؟ حسب يوسيفوس وفيلون ومما اكتشف حديثا من

مخطوطات البحر الميت ، يمكننا رسم خط فاصل بين يسوع وجماعة
قمران التي يعتقد بعض العلماء انها تكونت من الاسانيين .

لقد تأسست مستعمرة قمران حوالي ١٤٠ - ١٣٠ ق.م .
اسسها اناس يعتقد بانهم ينتمون الى « جماعة الاتقياء » (Hassidim)
التي عاصرت فترة المكابيين . وكان طموح المكابيين السياسي في
الاستيلاء على السلطة والاستئثار برئاسة الكهنوت وادخال التقويم
القمري الى الهيكل قد اضطر الكثيرين من الاتقياء على انسحاب الى
الصحراء ليشكلوا جماعة منفصلة عن كهنوت اورشليم (٧) .

وبالفعل اعطيت جماعة قمران الكهنوت اهمية بالغة ولقبسوا
انفسهم بابناء صادوق تأكيدا لشرعية كهنتهم ورفض ادعاءات
الكهنة الذين كانوا يعيشون ويحكمون في اورشليم (٨) .

تختلف الاناجيل اختلافا جذريا عن مخطوطات البحر الميت في
بعض المواضيع . يمكن الخلاف الاول في النظرة الى ماسيا . ففي
حين تؤكد الاناجيل على ان ماسيا قد اتى بشخص يسوع الناصري
مانحا الخلاص بموته وقيامته ، نجد مخطوطات البحر الميت تشير الى
وجود شخصين يحملان اسم ماسيا : ماسيا الكهنوتي الذي يأتي
من قبيلة هرون ، وماسيا السياسي الذي هو ماسيا اسرائيل . اما
الآتي من سبط هرون فيكون اكثر اهمية من ماسيا اسرائيل . وهناك
وثيقة قمرانية تدعى « كتاب الطاعة » تتحدث عن مجيء نبي آخر
غير هؤلاء الاثنين اللذين ذكرنا .

يعرف زعيم جماعة قمران بـ « معلم العدل » ، وكان غالبا ما
ينتمي الى الصدوقيين . يقال انه استشهد على يدي « الكاهن
الشريز » دون استطاعة تأكيد ذلك . ولكن حتى اذا صح ذلك فعلا
فجماعة قمران لا تعتبر عمله هذا خلاصيا . تبث محاولات عديدة
لكشف هويته كالقول مثلا انه ماسيا المصلوب او السابق للمسيح ،
لكن كبار علماء الكتاب لا يقبلون ايا من هذه الادعاءات (٩) . وكان
« معلم العدل » معلما ومقربا للناموس ولربما كان يعلم بان طاعة
الناموس هي طريق الخلاص . وكانت آفاق الاسانيين ضيقة . وكانوا
جماعة منغلقة على نفسها تحضر تعاليمها بالمختارين فقط ، على
عكس يسوع الذي لم يأت من اجل الصالحين بل الخطاة . وكان

ضيق افق الاسانيين يظهر في نظرهم الى الناموس . فقد قطعوا كل صلة باورشليم لانهم اعتقدوا انها لم تحافظ بأمانة ودقة على الناموس . وجماعة قمران قامت على الناموس مثلها في ذلك مثل الفريسيين ، لكن اعضاء قمران فاتوا الفريسيين تعلقا بالحرف حتى دعاهم البعض بحق «الفريسيون من الدرجة الاولى» (Super Pharisees) . وكذلك موقفهم من التقويم لا يختلف عن موقفهم من الناموس . وقد دعوا بت «اختصاصي التقويم» ، اذ انهم كانوا يؤمنون بان تعيين عيد ما وفق التقويم «الصحيح» له صلة وثيقة بالخلاص . وكونهم «حرفيين» في نظرهم الى الناموس جعلهم يتعلقون ايضا بحرفية الطقوس . فكل شيء بالنسبة لهم يعتمد على القيام بالطقوس الصحيحة وفقا للتقويم الصحيح (١٠) . هذا الموقف بعيد اشد البعد عن جعل يسوع «السبت من اجل الانسان وليس الانسان من اجل السبت» (مر ٢ : ٢٧) .

زعمت تلك الجماعة انها تمثل اسرائيل الحقيقي وانها شعب الموعد وان اعضاءها اولاد النور الذين سيتجاوزون المحن التي سترافق نهاية هذا الدهر ومجيء الدهر الآتي . هذا الانشغال بحدوث «الازمة الآخروية» صبغ كل نظرتها الى الامور . لذلك سلخت نفسها عن العالم بعية التظاهر قبل حدوث الازمة الآخروية . ولكننا لا نجد في الادب القمري تعليما مشابها لتعليم يسوع بان ملكوت السموات قد اتي فعلا . ولا يوجد في مخطوطات البحر الميت تعليما عن الوهية المسيح . وهناك مفارقة واضحة في التعليمين فيما يخص المناقب . فالانجيلي متى دون كلمات يسوع : «سمعتم انه قيل احبب قريبك وابغض عدوك اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم . . . وصلوا لاجل من يسيئون اليكم ويضطهدونكم لتكونوا بني ابيكم الذي في السموات» (متى ٥ : ٤٢ - ٤٥) . تجدر الاشارة الى ان عبارة : «ابغض عدوك» لا توجد في العهد القديم ولا في الادب الزباني بل في مخطوطات البحر الميت (١١) . فمن الجائر القول بان يسوع عندما تقوه بهذا المقطع من الموعظة على الجبل كان يجول في خاطره تعليم جماعة قمران ، فادان تعاليمها (١٢) . وهناك مقطع آخر قد ذكر لمعارضة تعليم الاسانيين واعتقاداتهم ، هذا المقطع هو مثل «العشاء العظيم» السوارد في (لو ١٤ : ١٥ - ٢٤) .

فنعندما اعتذر الكثيرون عن تلبية الدعوة الموجهة اليهم للمشاركة في ملكوت الله ، قال رب البيت لعبدته : « اخرج عاجلا الى شوارع المدينة وازقتها وادخل الى هنا المساكين والجدع والعميان والعرج » . اما في الادب القمرائي هناك نص يقول : « لا احد من الحمقى والمجانين والسذج والمعتوهين والعمي والجدع والعرج والطرش والقصر يستطيع الدخول الى وسط الجماعة لان الملائكة القديسين (في وسطها) » (١٣) . كانت جماعة قمران مؤلفة من كهنة ذوي اصل كهنوتي فقط ، وكانت معروفة بتصلبها تجاه الامة فلا تبدي لهم اي اهتمام او شفقة . فدعى يسوع الى ملكوته كل من كانت ترفضه هذه الجماعة . بالاضافة الى هذين المثليين توجد في الاناجيل امثلة اخرى قد تكون موجهة ضد بعض آراء هذه الجماعة (١٤) . وقد انهى متى مثل فعلة الكرم بقوله : « هكذا يصير الاخرون اولين والاولون آخرين » (متى ٢٠ : ١٦) . هذا القول يستشف منه انه ليس موجها ضد الفريسيين فقط وانما ضد الاسانيين كذلك لان جماعتهم كانت شديدة التنظيم وتفصل تماما بين رؤسائها واعضاءها الآخرين .

على الرغم من الفروقات الجوهرية بين تعليم يسوع وتعليم الاسانيين ، فان الوثائق المكتشفة مؤخرا ذات اهمية بالغة في الدراسة الانجيلية . اذ انها تلقي ضوءا على المحيط الذي زود الانجيل الرابع بمفردات ومصطلحات استعملها للتعبير عن بعض آرائه الدينية . فعبارة « الحياة الابدية » كانت شائعة في جماعات فلسطينية كهذه . قبل اكتشاف مخطوطات البحر الميت كان بعض الباحثين يميلون الى الفرضية القائلة بان انجيل يوحنا كتب في القرن الثاني تحت التأثير الهليني . ولكن هذه الفرضية استقطبت بعد اكتشاف المخطوطات واصبح بالامكان الرجوع بكتابة الانجيل الى وقت اسبق . ولا يد من التنبؤ هنا بان اهمية هذه المخطوطات بالنسبة للاناجيل السينائية اقل بكثير منها بالنسبة للانجيل الرابع (١٥) . وبالرغم من ان الاناجيل لم تات على ذكر الاسانيين اطلاقا ، فمعرفة هويتهم وتعاليمهم تساعد على فهم افضل وتقدير اكثر شمولية لبعض اقوال وامثال يسوع الواردة في الاناجيل السينائية . مجمل القول ان اكتشاف هذه المخطوطات افصح لنا المجال للاستزادة من معلوماتنا عن خلفية حياة يسوع ، وان نعي بشكل افضل جده تعاليمه وفرادته .

يسوع والسامريون والامميون

لو اراد يسوع الانتماء الى احدى الحركات الدينية اليهودية لاستطاع ذلك دون التسبب في اية فتنة او اثاره غضب السلطات الدينية في اورشليم . حتى ولو ابتغى تأسيس حركة دينية خاصة به لما تعرض للاضطهاد ولا عرض حياته للخطر . والتاريخ يثبت ان يسوع لم يلتحق بآية فئة دينية قائمة ولم ينشئ فئة جديدة . لانه اتى الى شعب اسرائيل بأكمله واشفق على جماهير الشعب المزدرى من قبل السلطات والمثقفين . و « لأنهم كانوا كخرقان لا راعي لها طفق يعلمهم اشياء كثيرة » (مر ٦ : ٣٤) . بالطبع اتى من اجل « شعب الارض » ومن اجل العارفين بالناموس . كذلك يوحنا المعمدان لم يسع الى تنظيم جماعة رهبانية كجماعة قمران لأن هاجسه لم يكن ايجاد شيعه دينية يهودية (لو ٣ : ١٠٠ - ١٤) ، بل تخضير اسرائيل لحيء المسيا .

والسامريون كانوا جماعة تحتقرها جماهير الشعب ومرفوضين من كل الفئات اليهودية الاخرى . وكانوا منفصلين كليا عن جماعة اليهود . فالسامري بالنسبة لليهود ينتمي الى جنس مختلط وممقوت ظهر بعد سقوط الملكة السنة ٧٢٢ ق.م. ، وهو أسوأ من الامميين . وهناك مثل يهودي شائع يقول : « ان ماء السامريين اكثر قدارة من دم الخنازير » . وكلمة « سامري » كانت تستعمل للدلالة على الإعداء (يو ٨ : ٤٨) . اما يسوع فقاوم هذه النزعات القومية بشدة . وقد تعجبت المرأة السامرية كيف يطلب منها يسوع ، وهو اليهودي ، ان يشرب « لأن اليهود لا يخالطون السامريين » (يو ٤ : ٩) . وللذي سأل يسوع من هو قريبي احاب باعطائه مثل السامري الرحيم (لو ١٠ : ٢٩) . كما انه مر بالسامرة في طريقه الى اورشليم . لكن السامريين « لم يقبلوه لأن وجهه كان متجها الى اورشليم » . وعندما طلب منه ابنا زبدي ان ينزل ناراً من السماء فتاكلهم ، « التفت وزجرهما » (لو ٩ : ٥١ - ٥٥) . وفي مكان آخر شفى يسوع احد السامريين وغطه على كثرة ايمانه (لو ١٧ : ١١) . وهكذا تظهر الاناجيل بوضوح ان يسوع لم يستثن السامريين من الخلاص .

وبالرغم من أن رسالة يسوع الخلاصية لم تكن محصورة
 بجماعة معينة بيد أنها وجهت أولا الى شعب إسرائيل . فكانت لشعب
 الله المختار الاولوية في سماع كلام يسوع ومشاهدته اعماله .
 وأوصى تلاميذه قائلا : « الى طريق الامم لا تتجهوا ومدن السامريين
 لا تدخلوا بل انطلقوا بالحري الى الخرقان الضالة من آل اسرائيل ،
 وإذا ذهبتُم فاكرزوا قائلين قد اقترب ملكوت السموات »
 (متى . ١٠ : ٥ - ٧) . واجاب يسوع المرأة الكنعانية الاممية التي
 طلبت منه ان يرحمها ويرحم ابنتها المزبونة : « لم ارسل الا الى
 الخرقان الضالة من آل اسرائيل » (متى ١٥ : ٢٤) . هذان
 المقطعان لم يردا الا في انجيل متى . ولكننا لا نستطيع الادعاء بأنهما
 ليسا من يسوع بل من اختلاق الجماعة الكنسية الاولى . لانها لنسو
 فعلت ذلك لجلبت الى نفسها المتاعب لان البشارة كانت قد وصلت
 الى الامميين وكان عدد منهم قد دخل الكنيسة عندما كتبت الاناجيل .
 وهكذا يكون متى قد دون هذين المقطعين وحافظت عليهما الكنيسة
 لاعتقادها بأن يسوع مصدرهما .

لدينا امثلة عديدة تشير الى ان رسالة يسوع كانت موجهة
 لجميع الامم . فبعد ان قال للاممية : « ما جئت الا للخرقان الضالة
 من آل اسرائيل » (متى ١٥ : ١٤) ، شقى لها ابنتها . وكذلك شقى
 خادم رئيس المائة (متى ٨ : ٥ وما يوازيها) . ويسوع نفسه اعلن ان
 « كثيرين ياتون من المشارق والمغرب ويتكثرون مع ابراهيم واسحق
 ويعقوب في ملكوت السموات واما بنو الملكوت فيلقون في الظلمة »
 البراتية « (متى ٨ : ١١ - ١٢) .

ان موقف يسوع من الامميين ظهر ايضا في خادثة طرد الباعة
 من الهيكل الواردة في الاناجيل الاربعة . واخذت هذه العملية ضفة
 التشمولية لليهود والامميين . لم يكن يسوع ضد العبادة في الهيكل
 انما ابتغى تغييرا يتيح للامميين الاشتراك مع اليهود في تمجيد الله
 واعماله . فقال للباعة : « اليس مكتوبا ان بيت ابي بيت صلاة يدعى
 لجميع الامم وانتم جعلتموه مغارة للصيوض » (متى ٢١ : ١٧) .
 الهيكل الجديد هو هيكل جسد المسيح (يوحنا ٢ : ٢١) وهو يضم
 « جميع الامم » حسب اشعيا (٥٦ : ٧) . ويبتدا الزمن الماسياني
 عندما يشترك الامميون مع اليهود في العبادة . فعند مجيء ماسيا

ستتحول العبادة اليهودية الى عبادة تشمل جميع الامم . واذا كان يسوع قد طرد الباعة من القسم المسمى « باحة الاميين » التي كانت مفصولة عن باقي باحات الهيكل والتي كان اجتيازها محصورا باليهود ، فانه قصد هدم الحائط بين اليهود والامم وجعل الباحة جزءا من بيته .

بموت يسوع وقيامته تهدم الجدار الفاصل بين اليهود والامم ، هذا الجدار الذي بدأ ، بهجاء المسيح ، يتصدع . وقد ارسل يسوع الناهض من القبر تلاميذه لـ « يتلمذوا كل الامم » (متى ٢٨ : ١٨ - ٢٠) . ولم تشكل هذه الدعوة تغييرا مفاجئا في مخططاتهم لان يسوع سبق وهياهم لهذه الحملة التبشيرية الواسعة النطاق عندما قال : « ينبغي ان يركز اولا بالانجيل في جميع الامم » (مر ١٣ : ١٠) . وعندما سكنت البراة-قارورة الطيب على رأس يسوع في بيت عنيا ، اشار الي ان الرسل سوف ينشرون الرسالة في كل العالم وان الشهادة بين الامم لن تكون سهلة وانهم سوف يضطهدون من اجل اسمه (متى ١٠ : ١٨) . وعلمهم انه في مجيئه الثاني وفي يوم الدينونة ستجتاح الامم كافة ولن يكون التمييز بين الخراف والجداء على اساس عرقي او قومي ، ولا على اساس امتيازات او استحقاقات ، بل على اساس علاقة الفرد بابن الانسان وبقربيه (متى ٢٥ : ٣١) ، وان اليهود والاميين سيكونون على حد سواء تحت حكم الله ورحمته (١٦) .

وبايجاز نقول : لم يتم يسوع الى اية حركة دينية في اسرائيل . ولم يؤسس حزبا دينيا خاصا به . ولم يكرس في رسالته الانتقاسمات الموجودة في اليهودية بل تجاوزها كلها في تحقيق الوعود التي قطعها الله للآباء والانبياء . لقد اتى يسوع ليوجد جماعة جديدة لا يساير فيها الدين القومية والتقاليد الوطنية بل يشارك فيها اليهود الاميين العبادة الواحدة ويستفيد الجميع من النعم الممنوحة لكنيسة المسيح . هو الذي « جعل الاثنين واحدا ونقض في جسده حائط السياج الحاجز . . . وبصالح كليهما في جسد واحد مع الله بالصليب » (افسس ٢ : ١٤ - ١٦) . فيكون الهدف الرئيسي من تجسده تخطي الحاجز الذي كان قائما بين الله والانسان وكشف الله ومشيئته لكل انسان .

لقد كانت إشارة يسوع لإسرائيل علامة لوعيه الماسياني
وسلطانه الالهي . لقد اتى ماسيا المنتظر متجاوزا باعماله واقواله
وتعاليمه التقاليد اليهودية في عصره ، محققا الآمال الماسيانية كل
التحقيق . وهذا يجرنا الى السؤال التالي : من هو يسوع ؟

